أحمد محمد عطية

تطور شخصية البطل الثوري في روايات عبدالرحمن الربيعي

عبدالرحمن مجيد الربيعي ، قصاص وروائي عراقي (١) ، تعبر كتاباته عن تطور الثورة العراقيه وتجارب الكفاح الوطني والثوري وتزخر بزخم الحياة العربية في العراق وتاريخه القومي والاسطوري ، وذلك من خلال رصد التطور في شخصية البطل الثوري . فتصوراحدث قصصه القصيرة « مملكة الجد » (٢) كيف تشحذ الثورة عزيمة رجل من صميم الشعب وتمده ذكريات مشاركته المفوية في صفوف الثورة الوطنية ، ضد الانجليز خلال احتلالهم للعراق ، بمعين لا ينضب للنضال والمقاومة الانسانية طوال حياته . وفي هذه القصة ، المكتوبة بروح الرواية ، يمزج الربيعي التاريخ الثوري العراقي ابتداء من ثورة العشرين واستشهاده ومرورا بثورة العشرينات وثورات العراق الاخرى، حيث يظهر بجلاء الحس التاريخي والاسطوري والقومي والوطني والثوري ، اذ تمثل كلها ابعادا ثرية لادب الربيعي .

في روايته القصيرة « عيون في الحلم » (٣) (٧٠ صفحة قطع متوسط) ، يصور الربيعي تجربة الثوري ضد الحكم الملكي في العراق . وبطلها سالم رسام (٤) وثوري محترف عانى مرارة الاعتقالات المتكررة ونفى من مدينته الى قرية بعيدة نائية يلخص البطل الثوري ازمته قائلا : « عندما اعتقلت اول مرة تصورت نفسي بطلا ، والعراق كله يهتف بحياتي ، أخذت أمشي مرفوع الرأس والاصفاد في يدي . وكنت اخال انظار الاخرين تتأملني اعجابا . ولكنني عندما اختليت لنفسي في تلك الزنزانة القذرة ضحكت . أحقا اما مهم الى هذا الحد ؟ » (٥)

وتصور هذه القصة الطويلة او الرواية القصيرة من خلال الحوار والمونولوج الداخلي لبطل تطوره الثوري وتأرجحه بين الاصرار والكفاح واليأس والانهيار والاحباط . فنحن نراه في البداية في اعقاب نفيه مهتزا مقهورا ، ان حياته كلها في ازمة الاحباط وكل شيء قبض الريح، وعندما يشد صديقه من أزره ويشيد بمواهبه يسقط في هوة رهيبة ناتجة من تكرار معاناة الارهاب والاعتقال بينما المدينة لا مبالية بل انه يراها مقهورة مثله . فكر بانه يرسم ولكن ليس بالابداع المنشود « .. رسومي ميتة لا تنبض ، ليس فيها ذلك الدفق الذي اريده . أريد عمقا ، اريد ان انفذ الى القرار ، لكنني لن أطيق ، وان بقيت على هذه الحال سأحطم فرشاتي وارميها في الفرات .»(٦) ان البطل هنا محبط ولكنه ليس عاجزا ، انه بطل يتشكل ويبحث عن طريقه ، وبهذا البحث عن الطريق الصحيح يبدأ البطل الثوري بالتطور والتعلم في روايات الربيعي . ففي هذه الرواية القصيرة « عيون في الحلم » نرى « سالم » يتقلب بين الرجاء واليأس ، بين الانتماء والضياع ، بين الجدوى واللاجدوى والعبث . وسنرى كيف صور الربيعي في روايته الاولى تردد بطله الثوري وتأرجحه ، ثم نتابع رحلة البطل الثوري في روايتيه التاليتين « الوشم » و « الانهار ». فاذا رأيناه يرفض رسومه فانه رفض الساعي من أجل الافضل والاعمق ، رفض المستمر اذ هو يرسم بكثرة .ولكنه يطلق صيحةاليمة، بينما هو مخمور في قبضة القهر واليأس وبعد ليلة مؤرقة مع عشيقته التي نفرت من رائحته المخمورة (٧) ، « ليلى . اني غريق » (٨) .

---

(١) اصدر عبدالرحمن الربيعي خمس مجموعات قصصية وروايتين. المجموعات القصصية هي « السيف والسفينة » (١٩٦٦) ، « الظل في الرأس » (١٩٦٨) ، « وجوه من رحلة التعب » (١٩٦٩) ، « المواسم الاخرى » (١٩٧٠) ، « عيون في الحلم » (١٩٧٤) ، وتصدر قريبا سادس مجموعاته القصصية بعنوان « ذاكرة المدينة » .

(٢) مجلة « بيروت المساء » اللبنانية ، عدد ١٥ ـ ٢١ ابريل (نيسان) ١٩٧٥ ، ولكن تاريخ كتابة القصة يرجع الى عام ١٩٧٤ كتاريخ الكاتب .

(٣) كتبت سنة ١٩٧٠ ونشرت لاول مرة بمجلة الاقلام العراقية العدد التاسع عام ١٩٧٢ ، ثم كونت مع خمس قصص قصيرة المجموعة القصصية الخامسة للربيعي ومنحتها عنوانها ايضا . صدرت مجموعة « عيون في الحلم » عن اتحاد الكتاب العرب في دمشق عام ١٩٧٤ . واليها تعود المقتطفات والاشارات .

(٤) يلاحظ ان تخرج الربيعي من كلية الفنون ونيله لاجازتين اكاديميتين فيها ، يجعل من ابطاله فنانين تشكيليين ، فمن هذا الوسط الفني ، الذي فارقه الفنان الى فن القصة والرواية ، يختار الربيعي شخصياته .

(٥) عيون في الحلم ، ص ٧٧ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٨٠ .

(٧) يلعب الخمر دورا كبيرا في قصص الربيعي وروياته ، وقد ذكرت هذا في لقاء ببغداد ضم الفنان عبدالرحمن الربيعي والناقد العراقي محمد الجزائري وكاتب هذه السطور ، واكمل الجزائري مؤكدا بان كل ابطاله مخمورون . وبوسعنا ان نكتب الصفحات الكثيرة حول هذه الظاهرة اذ لا شك ان هذا كله ليس بعيدا عن واقع الحياة في العراق الذي تؤدي فيه الخمر دورا اجتماعيا نشيطا . انظر مثلا الحوار الطويل في قصتنا هذه حول الخمر بين زملاء يتعاطونها وواحد يرفضها ص ٩٦ .

(٨) المصدر السابق ص ٨٣ .

يسافر « سالم » ، البطل الثوري ، الى منفاه ، وقد اعتراه اليأس والعبث ولكن حسه الثوري لا يلبث ان يستيقظ عندما يذهب الى القرية النائية فيجد المدرسة مكونة من اكواخ رطبة يحشر فيها الطلبة حفاة بؤساء . فكر « المأساة تلاحقني . هذه الوجوه الكالحة يجب ان تطلى بالخير والنعمة .. » (٩) ويستخدم الكاتب اسلوبين فنيين ، المونولوج الداخلي والحوار ، للتعبير عن تحرك الحس الثوري لدى سالم بطل القصة المنفي ، فمونولوجه الداخلي يفضح نوازعه الداخلية وقلقه وتوتره وتأرجحه ، ولكنه في حواره مع الطلبة يصرخ فيهم بثورية ووعي . يقول مونولوجه الداخلي : « نهضي ايتها التلال الرخوة . اقفل فمك . دولتنا حرة. مليكنا ما زال شابا .. مليكنا نفديك بالارواح .. تعد .. تعالوا لتروا وتكلموا بعد ذلك . قطعي شرايينك ايتها الديدان .. لن تمتصي دما جديدا .. سنملأ أجوافنا بالخزي والرصاص .. وسيرتفع نشيد العراق .. العراق .. العراق.. انتم لا تدركون شيئا ايها المساكين .. يا طعام الارض .. ياحيوانات الارض .. لست نبيا جاءكم برساله .. انا مزيج اقنعة .. كل شيء كان موجودا قبل مجيئي .. وسيظل . ولكنكم لم تروه .. اوصدوا عيونكم بالجهل والغباء ..لا تتظلموا الي بهذا الاستغراب .. ان عيونكم تدين قلقي وبطري .. آه .. لا أجيد النصح ! ! » اما في الحوار فانه يحض تلاميذه على رفض واقعهم اللاآدمي السيء والتطلع الى مستقبل أفضل : « ان حياتكم القاسية يجب ان تكون افضل ولا شيء يجعلها هكذا الا التعلم ، انه طريقكم الوحيد والا بقيتم في هذا التخبط معيدين نفس حياة الذل التي عاشها آباؤكم وأجدادكم .. انتم لا تختلفون اليوم عن حيوانات الحقل بشيء .. آن لم تدركوا هذا اليوم فستدركونه غدا .. أسمعتم ما أقول ؟ » (١٠) .

هذا جزء من التطور الذي لحق بشخصية سالم البطل الثوري في منفاه بين الفلاحين البؤساء وابنائهم الحفاة المتظلمين الى غد افضل ، اما في بقية الاجزاء ، فقد اطلق لحينه وترك نفسه على سجيتها وتخلص من عادات المدينة البورجوازية وأخذ يغوص في واقع الحياة العراقية البائسة في ظل الملكية المستبدة العميلة للاستعمار البريطاني، انه يتعامل مع الحياة ومع الناس ويتفاعل معهم. وفي رسالة الى صديقته يصور الفنان ازمة البطل الثوري بين رفضه لواقع الحياة المتخلفة ورفضه لدور البطل الثوري ويأسه من القيام بدور المنقذ كما تتطلع اليه القرية باعتباره معلم المدرسة وصاحب ارقى وظائفها المدنية ، « ساحدثك عن الركون والتشرد واحلام الرجال المغلوبين .. سأظل هنا .. لست منهارا .. ليتني اطيق الحكم بالسخف على كل شيء .. قطاعات على الجرف تعدمها اوهى الرياح .. بتأملون وجهي كمنقذ .. لا املك حتى زمامي .. مجرد آلة تدار .. قلبي لك .. ليتك ترينني على هذه الحال اذن لهربت من حبيبك المنبوذ .. عسا لهذه اللحظات .. مني دعي رأسي لحظة .. عواطفي عارية متدفقة كالينبوع .. أنوق للقياها كما يتوق الزرع ليوم سقيه .. » (١١) .

وفي بؤس القرية وحياة اناسها البسطاء يتشكل الثوري ويكتسب خبرات جديدة ، يصير الثوري انسانا جديدا يفكر « صدقني يا رشيد ان اشياء أخرى اخذت تجرني الى ميدانها . يجب ان اجعل لحياتي معنى » .(١٢) هكذا يتطور البطل الثوري في « عيون في الحلم » .واخذ يرصد واقع التخلف ماديا وفكريا ووجد في الجريمة اسلوبا خاطئا للرفض الفردي . ووجد في ذلك الواقع البائس من الالم والاسى ما يفوق اقوى المنشورات الثورية ، فالواقع حي يصرخ في اغنياته الريفية الحزينة المسحوقة « انه اشبه بالصرخة الاخيرة لرجل يهوى من سطح عمارة . كل شيء خرب وحزين هنا.ماذا تغير ؟ اورافك ونشراك يانوري اشبه بالقبان في فم جائع ! » (١٣) انظر الى دقة التشبيه وغنى التعبير وكيف طور الثوري من الكفاح الثوري بالمنشورات حتى كان يتوقع اعتقاله عقب كل حركة لتوزيع منشورات جديدة ، الى ان انتهى كفاح المنشورات والاعتقالات به الى النفي في قرية عراقية نائية ، وها هوذا يكتشف من جديد ضعف اسلوب الثورة بالمنشورات ازاء هذا الواقع الفاسد القاسي ، فكتشف ان الكفاح الورقي بالمنشورات اشبه بالقبان في فم جائع . وامعانا في المشاركة الواقعية والامتزاج بالواقع ومعاناته يصاب البطل بالبلهارسيا كما يحدث لكل الفلاحين . وقد نجح الربيعي في تصوير التأرجح الطبيعي في شخصية البطل الثوري ، في قصته الطويلة « عيون في الحلم » ،بين ماضيه الثوري واضطهاده تارة ، وبين حبه لفتاته في المدينة تارة ثالثة . وهو خلال كل هذا يتقلب بين الامل واليأس والرجاء والاحباط واللاجدوى والثورةوالعمل من اجل مستقبل افضل . فيقدم الربيعي شخصية ثورية حية ، ليست نمطا ورقيا وليست احادية الجانب . وفي هذه الحيوية ينجح الربيعي ايما نجاح في تصوير ازمة البطل الثوري . وتنساب افكار ومشاعر البطل من خلال المونولوج الداخلي وتيار التسعور فنرى حياته كلها في صورة بانورامية للعذاب والقهر ، اذ يفكر وهو جالس في حانة ، ببغداد حيث سافر للقاء حبيبته ، « غدا اعود الى مدينتي . بغداد تفزعني . نعم . نعم . لا تضحك . رأيت كثيرا . خبرت الدنيا . عرفت التشرد والالم . عملتبيدي. كانتا خشنتين مثل الارض . اصابني التسرف . لا . هذه اشياء وقتية . سالم عباس لن يخون . بلا اقنعه نعم . طيبون بسذاجة . ابي لم يجلس وراء مكتب فخم ولا جدي .نعم لا يعرفون غير القرآن . لن يفسدنا احد . لا نعرف الحقد ، لا نتعصب الشراك . نثار . نحبحتى الموت . لن نتراجع عن قول . كلمتنا واحدة اشداء . نرعب اعدائنا . لا تضحك . انتهى الربع سريعا . هات نصف ربع آخر .احب قبيلتي وامي ورشيد ونوري ، امي رائعة . عظيمة تلك القروية السمراء . لم تبك مثل الامهات . تزغرد كلما سجنوني . السجن للرجال هكذا تردد .. وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .هاها التليفزيون . قرقوز . الله والملك والوطن هكذا علمونا منذ صبانا . كفرنا بهم . سننفخ على هذا المليك . نعم عرفت السجن . ضربوني فقدت وعيي . تركوني بلا ماء . شتموني . بصقوا في وجهي .علموني الحقد . العفو عند المقدرة . لا انني لا أهذي . مليكهم . ابن الانكليز. عار آه يا صديقي كنت مترددا دوما » (١٤) . وينتهي تردد البطل الثوري بعودته الى تلاميذه الفلاحين يلقنهم اناشيد النضال ، مواصلا طريقه الثوري ، بينما يهاجم الحرس مدرسته النائية بقرية صغيرة بائسة لا وجود لها على الخريطة ، فيعتقل كسالف عهده . وبهذا تنتهي تجربة القلق والتوتر للبطل الثوري في ظل حكم الملكية والاستعمار كما صورها الربيعي في روايته القصيرة « عيون في الحلم » باصراره على المضي في طريق النضال الثوري . وسنرى تطور شخصية البطل الثوري بعد قيام ثورة ١٤ يوليو (تموز) ١٩٥٨ في العراق وما صاحبها من احداث وانتكاسات ماثلة في رواية الربيعي الثانية « الوشم » . ويذكر الناقد العراقي محمد الجزائري في دراسة له لرواية « الوشم » (١٥) ، بانها الجزء الثالث من ثلاثية صدر الجزء

---

(٩) المصدر السابق ص ٨٧ .

(١٠) المصدر السابق ص ٨٨ و ٨٩ .

(١١) المصدر السابق ص ٩٢ .

(١٢) المصدر السابق ص ١٠٠ .

(١٣) المصدر السابق ص ١٠٧ .

(١٤) المصدر السابق ، ص ١٢٣ و ١٢٤ .

(١٥) الجزائري ، محمد ، « الوشم » رواية السقوط السياسي والاحباط ، مجلة « الآداب » اللبنانية ،عدد نوفمبر ١٩٧٢ .

الاول منها بعنوان « عيون في الحلم » ، فاذا صح هذا فانها تعد بلاشيء افكار تشير الى تطور شخصية البطل الثوري المصاحبة لتطورات الثورة في العراق وليست ثلاثية شخصيات او اجيال ، لان الشخصيات مختلفة في الروايات الثلاث بل انها تتطور خلال جيل واحد .

كريم الناصري ، بطل رواية الربيعي الثانية « الوشم » بطل بلا بطولة ، فال تحققه وهو ينشد الخلاص من الخيبة الثوريه « لم ابحث عن بطولات دونكيشوتية يوما ! » (١٦) بطل مأساوي مثقف من ابناء الفقراء، جرب الخلاص بالسياسة ففشل فجرب الخلاص بالحب. ورواية « الوشم » ،ذات البناء الفني المحكم والازمنة المتداخله دون فواصل ، ليست الا تشريحا داخل شخصيه هذا البطل الثوري الهاوي، فتيار الوعي يثير احداث البطولة الثورية الماضية وكيف انتهت به الى الاحباط واليأس والاعتراف والخيانة ، وتلك نهاية محاولة الزمن الماضي للخلاص بالثورة . اما الزمن الحاضر فيجسد لنا محاولة البطل الخلاص بالحب بعد ان يكتشف انه وزملاءه ليسوا ابطالا ولكنهم ضعفاء منخورون ينهارون عند اول مواجهة لهم مع جلاديهم . ويجسد الرواية مدى الاحباط الذي اصاب كريم الناصري من جراء وقوعه في عالم القهر ، وتؤرخ لتجربة الثوري العراقي في مرحلة اخرى من مراحل الثورة العراقية بعد قيام ثورة ١٤ يوليو (تموز) ١٩٥٨) والاطاحه بالحكم الملكي والتبعية للاستعمار . وهي فترة تاريخية معروفة شهدت الانتصارات والانتكاسات ثم الارهاب الفظيع . ويؤيد كاتبان عراقيان قرأ الرواية وكنا عنها بانها ترجمة لفترة حقيقية عاشها الثوري العراقي . قال عزيز السيد جاسم : « الوشم هي قصتنا جميعا ،كتبها الربيعي في حين لم يكتب عن انطفائها احد سواه » (١٧) . وكتب محمد الجزائري : « ان نكون او لا نكون امام حد الفصلة ، امام العسف والتعذيب واجهاض كل آدمية الانسان او انسانية الكائن .. ذلك هو السؤال الذي واجه الشباب من ادباء العراق ـ بخاصة ـ بعد نكسة ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ .. صحيح ان عبدالرحمن الربيعي حافظ على صدق الوقائع الى حد كبير .. » (١٨) .

كريم الناصري بطل ثوري منتم وملتزم اعتقل لمدة سبعة اشهر في اسطبل قديم للخيل ، وفي المعتقل اكتشف غربته وضعفه واخذت ذكرياته الثورية تنثال على عقله وعلى صلابته فتفتتهما ، ازاء ما رآه في المعتقل من انهيار زملائه ونهاويهم ، تهاوى النموذج البطولي للثوري ذلك الصلب الذي يفترض فيه ان يؤثر في الاحداث ويعرف كيف يتعامل معها « اشياء كثيرة مرت بي وانتهت عاجلة ، ورغم مرور السنين والاحداث بقي جوعي وافقا لاقامة علاقة دامية مع الاشياء، علاقة لوي العظام وتهرس الاعصاب كلها . في السياسة اردت ذلك ولكن نسائطهم الذليل امامي جعلني ابصق كبرياء ، واحتقر لحظاتي التي عشتها معهم باندفاع أصيل . جسدي ممدد الان في هذا المعتقل المحتشد مع هؤلاء الرجال الذين لا ينجانسون مطلقا في ثرثرتهم وشجاراتهم اليومية التافهة ، ولست ادري كيف انضووا تحت يافطة سياسية واحدة»(١٩) كريم الناصري مثقف ابن لفلاح فقير نشأ موقف الرفض لديه من استيقاظ وعيه الطبقي لدى مشاهدته لوقائع الفقر والبؤس « ان جهد والدي كان لا يساوي ربع دينار في اليوم ، يحرث الارض ويسقي الزرع ويحرس في الليل ، ويبرد ويجوع ويمرض ، وان استطعت ان اكون موظفا ذا دخل لا بأس به وانعم برفاه مادي فهذا لن يبعدني عن انتمائي لمسيرة جائعة اكلها جفاف الارض قبل ان تحصد ما بذرته ! » (٢٠) تلك كانت بداية الانتماء وكانت انتهايه في المعتقل ، وفيما بين البداية والنهاية اكتشف كريم الناصري المتمرد الثوري ، انه متمرد على كل شيء ورافض لكل شيء ، واهم ما رفضه الشعارات والاقاويل والرؤية الحزبية الضيقه، لقد كنت اعاني وابحث دائما ، اقرأ الكتب ، واساهم في المظاهرات والتنظيمات ، واشرب الخمور واحب وارتاد دور الزنا بلا انقطاع ، اردت ان اكون على صله ساخنه بالحياه واتجدد معها ، ولكنني اكتشفت انني كنت أخسر هذه الحياه باستمرار ! » (٢١) لقد رفض كريم الناصري لاحساس عبثي باللاجدوى التمرد ، الرفض الكامل ، واللاايمان ، واللابطولة ، اذ كان قد رفض كل شيء وايقن ان سعيه للبطولة انتهى به الى التضاؤل والهزيمه والاحباط . كان كل ما يفكر فيه هو كيف ينتهي من هذه الوصمة ، من هذا الوشم ، من هذا الانتماء الثوري . « عند التحقيق قال لي أحدهم ، لقد انتهت المسألة وليست هناك مجال لبطولة بعد .وضحكت في سري من كلمة بطولة هذه فهي الاثيون الذي قادني الى هذه المواقع والاحداث الملغومة » .(٢٢) .

رفض لكل طلبات المحقق ، ودون كل الاعترافات ، وابلغ عن كل شيء وسأله المحقق سؤالا ذا مغزى : « هل انهيت ؟!» فأومأ بالايجاب « فالغريق لا يخاف الطعنات » . أنظر كيف صور الروائي بدقة ومهاره نهاية طريق البطولة ومحاولة الخلاص بالثورة وبالسياسة ، كيف تفاعل كريم الناصري وهو يدون اعترافاته رضوخا لاوامر المحقق : « وتناولت الورقة والقلم واركنت في زاوية من الغرفة ، اسندت ظهري الى الحائط مددت ساقي تماما كما كنت افعل عند كتابة واجباتي المدرسية ايام الدراسة الابتدائية،وأخذت اخطط تارة واكتب تارة أخرى وكسرت رقابا جديده وامعنت في كسر رقاب أخرى . ثم القيت بالورقة والقلم وزفرت بقوة » (٢٣) .

تلك كانت مأساة البطل الثوري كريم الناصري . لقد تهرأ تماما وتخلى عن قضيته السياسية وسلوكه السياسي . وفكر في طريق جديد للخلاص بالحب ، فلا شيء مهم ، وليس بالامكان احداث اي تغيير ، « لن اغير العالم ولن أجعل الشمس تطلع من الغرب » (٢٤) . « ان أهم ما يشغلني الان هو : هل بالامكان ان تكون المرأة تعويضا كاملا عن الخيبة السياسية ؟ » (٢٥) تلك كانت قضيته التالية ،فتراه في الزمن الحاضر يهرب من ماضيه ، ينكر اسمه ، فحتى عندما عمل كريم محررا صحفيا اخذ يكتب باسم مستعار يغيره بين حين وآخر، لا أريد ان أظهر اسمي الملطخ الى النور » (٢٦) . « كيف نطيق اظهار وجوهنا الصفيقة للناس ! » (٢٧) ، « انني ادور في طرق لا يعرفني فيها احد ، واجلس في مقاه منزوية ، اقرأ صحفا قديمة واتابع برامج التليفزيون » (٢٨) وفي طريقه التالية للخلاص بالحب ،يتعرف

---

(١٦) الربيعي ، عبدالرحمن مجيد ، الوشم ، نشر دار العودة بيروت ١٩٧٢ ، الطبعة الاولى ص ٨٩ .

(١٧) جاسم ، عزيز السيد ، شيء عن الوشم ، كلمة ختامية الحقت بالطبعة الاولى للرواية ص ٩٤ .

(١٨) الجزائري ، محمد ، الوشم رواية السقوط السياسي والاحباط .

(١٩) الوشم ، ص ١٦ و١٧ .

(٢٠) المصدر السابق ، ص ٢٣ .

(٢١) المصدر السابق ، ص ٢٤ .

(٢٢) المصدر السابق ، ص ٨٩ .

(٢٣) المصدر السابق ، ص ٩٠ .

(٢٤) المصدر السابق ، ص ٦١ .

(٢٥) المصدر السابق ، ص ١٦ .

(٢٦) المصدر السابق ، ص ١١ .

(٢٧) المصدر السابق ، ص ٧ .

(٢٨) المصدر السابق ، ص ٨ .

الى مجموعة من النساء والفتيات ، « مريم » زميلته ، امرأة متزوجة ولها عشيق وتريد ان تضمه الى قائمتها ، و « يسرى » انموذج الفتاة الجميلة الطاهرة حاول ان يغسل بعلاقته بها عاره القديم وعلاقاته النسائية الاخرى الملوثة من « اسيل عمران » رفيقه الحزبية الثورية السابقة ، الى « مريم » انموذج الملوث مثله ،« ترى هل استطيع بها ان انقذ موقعي من الخطأ الجديد ؟ ها هي امامي فتاة رائعة ، اصابعها عارية ، وحدودها بكر ، لماذا لا أبدأ معها بداية جادة ؟ اغتسل منكم ، من اسيل عمران ، من مريم عبدالله ، من العالم ، من سخفي اليومي المتهرىء ؟ !» (٢٩) جرب كريم الناصري الجنس مع مومس فاصيب بالفتيان ، ومع راقصة في ناد ليلي . وكون علاقة نظيفة مع فتاته النقية « يسرى » التي وجد فيها فرصته الاخيرة للخلاص من كل آثام الماضي وعار الحاضر. « بها وحدها استطيع ان اسحق انكساري يا حسون ، وامحو عاركم واسطورة مريم عبدالله ، وانطفاء اسيل عمران » (٣٠). ولكن كيف يستطيع الملوث المنهار المتهرىء ان يسترد روحه وان يجد خلاصه بالحب مع فتاته «يسرى»؟! لقد ايقن بعدم جدوى الحب ايضا ، فرفض « مريم » و« شهرزاد » واوقف علاقاته النسائية ، اما حبيبته الحقيقية ومناط آماله فقد اشفق عليها من علاقته بها ان يلوثها او يحطمها ، فقال لها : « انت انسانة رائعة وعظيمة وبقدر ما احبك اخاف عليك من هذا الحب ولا اريدك ان تربطي حياتك بشريد مثلي مرمي على السواحل كالخشبة التي تقذف بها الامواج من بقايا السفن الغارقة .» (٣١) وهكذا فشل البطل الثوري كريم الناصري للمرة الثانية في الخلاص بالحب من ازمته، كما فشل من قبل في طريق الخلاص بالثورة . وهذا يذكرنا بتجربة الثوري عمر الحمزاوي ، بطل رواية نجيب محفوظ « السحاذ » ، الذي كف عن الثورة وحاول الخلاص بالحب ففشل فلجأ الى التصوف. اما كريم الناصري بطل رواية الربيعي « الوشم » فقد لجأ الى السفر ، « لا أعرف بالضبط الى اين ، فالسفر يهمني اكثر من المكان .. كلما تأزمت الامور وتعقدت تهرب منها بحثا عن بدايات جديدة » (٣٢) .

هل هذه هي نهاية مسيرة البطل الثوري في احدى مراحل الثورة العراقية كما صورها عبدالرحمن الربيعي في روايته القصيرة الثانية « الوشم » ؟ يرد الربيعي على تساؤلنا بان يحشو فم بطله الثوري السابق كريم الناصري بالامل في معاودة التنظيم تجميع صفوفه ومن ثم يرى في هذه العودة الثورية امله الحقيقي في الخلاص والابتعاث من جديد ، اذ يدور حوار بينه وبين « جابر » زميله الثوري الملتزم المتشبث بارضه وفكره وتنظيمه ، يسأل كريم زميله جابر عن خطواته المقبلة :

« اجاب جابر : سابقى هنا . ان حزبنا يعيد تجمعه من جديد ولن اتخلى عنه ابدا .

ـ كل الذي اتمناه يا جابر ان تعودوا ثانية وربما اعود بعودتكم، فانتم التفاؤل الذي افتقدته !

ـ أؤكد لك ان هذا سيكون قريبا » (٣٣) .

---

(٢٩) المصدر السابق ، ص ٣١ .
(٣٠) المصدر السابق ، ص ٧١ .
(٣١) المصدر السابق ، ص ٨٠ .
(٣٢) المصدر السابق ، ص ٨٦ .
(٣٣) المصدر السابق ، ص ٨٧ .

أعتقد بأن الربيعي بوضعه هذا الختام الحزبي الزاعق قد شوّه الكثير من صدق التصوير الذي اتبعه مع انموذج كريم الناصري ،وهو انموذج صادق وحقيقي . حقا ان الثوري الحقيقي لا يكف عن الثورة، وهذا ما اراده الربيعي بهذا الختام الايديولوجي لروايته « الوشم » معلقا الامل الحقيقي على عودة التنظيم الثوري والانتماء الثوري .ولكن التطور الصحيح لشخصية كريم الناصري وفراره من كل شيء الماضي الثوري والحاضر اللامبالي ، من السياسة والحب ، الى الهرب والفرار ، هذا الطريق لا يقود الى مستقبل ثوري على النمط القديم، انظر كيف صور نجيب محفوظ مثلا تجربة « عمر الحمزاوي » بطل « السحاذ » وانهياره وضياعه التام . واعتقد على خلاف ما ذهب اليه الزميل الناقد محمد الجزائري بأن الربيعي لم يدن هذا النموذج ولكنه ادان تجربة الثوري الحزبية ، ومن هنا اجد في الامال المعلقة على عودة الثوري الى الانتماء الحزبي ختاما سياسيا مفروضا فرضا على الرواية لاهداف سياسية . وسنجد الحل لمأساة البطل الثوري في التطور الذي لحق بشخصية « صلاح كامل » بطل رواية الربيعي الثالثة « الانهار » الذي وجد في الابداع والخلق اسهاما ثوريا حقيقيا وممكنا بدون شعارات او خطب كليشهية .

بعد انموذج كريم الناصري البطل الثوري المنهار ، الذي صوره الروائي العراقي عبدالرحمن مجيد الربيعي بواقعية صادقة تمثلت في ضعفه الانساني بدون بطولة صارخة في روايته الثانية القصيرة « الوشم » (٩٢ صفحة) ، تأتي روايته الثالثة الطويلة « الانهار » (٢٧١ صفحة) لتقدم تنويعات على لحن البطل الثوري ايضا ، اهم الشخصيات الروائية واكثرها ايجابية وفعالية وايحاء ، وهذه الرواية تمثل مرحلة ثورة ١٩٦٨ في العراق وتحتوي على رؤية قومية لنكسة ١٩٦٧ ايضا ، وذلك من خلال رؤى متعددة لشخصيات ثورية مختلفة مع بناء روائي حديث يستغني عن تدخل الراوي المطلع على كل شيء واسلوب السرد والزمن الواحد والحكاية المسلسلة التقليدية ، ويترك لشخصياته حرية الحركة وحرية التعبير عن آرائها ، متنقلا بسرعة بين الازمنة والامكنة والشخصيات ، ومستخدما بمهارة اساليب الفلاش باك وتيار الوعي والمونولوج الداخلي والحوار الذكي القصير ، حريصا على الا يفلت زمام استمتاع القارىء من بين يديه بكلماته الشعرية ودفقة الرواية وسرعة تنقلها بين الامكنة والازمنة والشخصيات النامية المتطورة والتنويع الكبير بينها في تشابك دقيق لم يختل لحظة واحدة ، بالرغم من غزارة الانطباعات وكثافة التعبير عن الواقع ووفرة الشخصيات الرئيسية والثانوية . فشخصيات رواية « الانهار » شخصيات حية ومتفاعلة مع الاحداث وايجابية ، وليس لمجرد تبادلها الكلمات والشعارات الثورية فقلما تفعل ذلك ، بل لانها تمارس صراعا واقعيا اجتماعيا تعبر من خلاله عن قوى اجتماعية ومن ثم فانها تتضافر وتشترك في النضال السياسي، انها شخصيات تنظر الى المستقبل وتسعى الى تغيير الحاضر ، شخصيات شجاعة تواجه الفقر والارهاب وعنف السلطة دون ان تنهار بل تطو على واقعها اليومي وتسمو لتكون لنا نظرة فكرية للمجتمع والحياة والمستقبل تكون بمثابة الطاقة المحركة لها ، يغذيها واقع يومي مصور بقلم روائي خبير بحياة ابطاله ومجتمعه .

ان الشخصيات المنهارة في الرواية هي الشخصيات الثانوية التي آثرت الانزواء بعيدا عن التيار الفاعل في المجتمع الذي مثله

يومي متصل ، يكشف عن الطاقات الايجابية الكامنة في الانسان . هذه الشخصيات التي تجد في السياسة همها اليومي وشرط المواطنة كما قالت احداها « صلاح كامل » ـ انموذج الثوري الواعي لدوره الواقعي دون تطرف وهي شخصية ايجابية تتفاعل مع الحياة وتتفاعل بالمستقبل وتعيش حياتها بواقعية ـ قال « صلاح كامل » لزميلته « هنى عباس » ، انموذج الشخصية الضعيفة كما كشفتها الرواية الرئيسي بمجموعة من الشخصيات الثورية اليقظة المتآزرة في كفاح من خلال سلوكها ، التي استنكرت اهتمامه بالسياسة : «السياسة طموح شخصي من أجل الوصول والحصول على بعض الامتيازات لدى البعض وهذه الحالة داء . ولكنها هموم يومية عند اخرين نفرضها شروط المواطنة وهذا ما انطلق منه »(٣٤) .

فهذه الشخصيات الثورية ضربت المثل بسلوكها واشارت من خلال تطورها الفني والموضوعي الى حقيقة هامة ابتغتها الرواية دون كلمات مباشرة او خطابية زاعقة . فلقد رأينا ان النماذج المتطرفة والمتعزلة بعيدا عن ميدان الصراع السياسي والاجتماعي ، ظلت بعيدة ، الى الابد عن معترك الحياة والابداع وتطوير المجتمع ، كنماذج سعدون الصقار واسماعيل النعماري وعبدالحميد الفلوجي ، الذين آثروا ، رغم اختلاف الدوافع ،الفرار من ميدان الصراع اليومي ، فظلوا جميعا بعيدين عن ارض الوطن يعانون من حالات غربة روحية فظيعة ، او كالنهاية المأساوية لهدى عباس .اما الشخصيات الثورية الايجابية فقد ثبتت في الميدان الذي ظلت تكافح فيه وتمكنت من احداث التغييرات المطلوبة وقدمت الابداعات والانجازات للوطن . فكر الفنان الثوري صلاح كامل : « ما نعت ارسم بهذا العنوان ، وهذا العشق فانني أدلك علـــى حضوري الحار في زمن الثرثرة والاحتراق » (٣٥) .

ان مثل هذه الشخصيات الروائية الايجابية التي تمثل قوى التقدم الصاعدة هي التي تؤثر فينا حقا ، فبمثل هذه النماذج النضاليـة نستطيع الرواية ان تدفع الناس الى الكفاح الثوري ، وتثبت بحق ان الادب شاهد رئيسي على الواقع باعتباره ضمير الامة وواحدا من اهم ادوات التعبير عن المجتمع . فالادب برؤيته الصادقة للمجتمع وبنماذجه وشخصياته الايجابيـة يسهم في دفع حركـة التقدم في المجتمع .

---

(٣٤) الربيعي ، عبدالرحمن مجيد ، الانهار ، نشر مكتبة الثورة العربية بغداد ، الطبعة الاولى توليو (تموز) ١٩٧٤، ص ٤٣ .

(٣٥) المصدر السابق ، ص ٥٢ .

القاهرة

هادي ياسين علي

الرفض

ـ هل تسمح سيدتي
ان امسح عن جبهتها الحزن، وان اقرأ في حضرتها
الشعر المكتوب على افخاذ الخيل ؟
هل تسمح ان ادخل في حجرتها ـ الليلة ـ محتميا
من عين العار واقضي الليل ؟
ـ هل انت المحكوم عليك بان ترعى الابل، وهل انت
الممنوع عليـك القول ؟
ـ يا سيدتي ، اما بعـد
فقد خانني الاخوة واقتسموا الابل مع الذئب
ـ اوضـح .
ـ يا سيدتـي
ما زال الذئب الليلة تلو الاخرى
يأخذ من ابل القوم غنيمته ..
فاتفق الاخوة ان يقتسموا الابل مع الذئب ، فهـل
تسمح سيدتي ان ..
ـ اكمـل .
ـ يا سيدتي ، واقتسم الاخوة والذئب الابل .
ـ وبعـد ؟
ـ فان الذئب اتى الليلة واقتسم النصف الثاني ـ
اي حصتنـا ـ
ان الذئب ..
ـ فهمت ، فهمت .. واما القول ؟
ـ اما القول ، فاني قد جئت على اخر قطرة صبر
عندي
ـ اوضـح .
ـ لم امتلك القدرة ان اصمت يا سيدتي
فانكسر الكأس وقلت القول .
ـ وما قلت ؟
ـ قلت لهم : « يا جبناء سيأتي الذئب ويأكلكم ،اما
يفرغ من اكـل الابل »
فائتمروا .
واتفقوا ان اطرد .. هل تسمح سيدتي ان ادخل؟
ـ تعال .. تعال ، فانت المنتظر ، الليلة عيدي
ـ سيدتي .. !؟
ـ تعال ، زمانا كنت نظرتك ،
اني ابحث عمن يرفض أن يصمت ان ينكر ابله
ابحث عمن يرجع للمقبض نصله
فجميل ان يلقى الشيء ـ الليلة ـ اصله

البصرة ـ السيبة